

القيم الاجتماعية في أغنية المصنف

عبدلي وهيبة نسرین

جامعة تلمسان

يتضمن مفهوم القيمة بالمعنى الاجتماعي اتخاذ قرار أو حكم يتحدد على أساسه سلوك الفرد أو الجماعة إزاء موضوع ما، ويتم ذلك بناءً على نظام معقد من المعايير والمبادئ، وهذا معناه أن القيمة ليست تفضيلاً شخصياً أو ذاتياً، بل تفضيل له ما يبرزه في ضوء المعايير الاجتماعية العامة.

ومعنى ذلك أن الفرد في تقويمه للأشياء يتأثر بأوضاع معينة ومعايير خاصة، ترعاها الجماعة فيشعر نحوها بالالتزام. ومنه "الاختيار والتقييم يتّمان في نطاق مدلول المصلحة العامة ومصلحة الجماعة أو المرغوب فيه منها أو النافع لها، الضروري لاستمرارها وبقاء كيانها"¹. والواقع إنه ليس هناك من يستطيع أن يخرج على كل معايير الجماعة وقيمتها. (أ) الصورة الحقيقية:

اعتمدت أغنية الصّف على صورة مباشرة وصريحة تعتمد على التعبير عن تجارب إنسانية واجتماعية ووطنية حقيقية. وتتجلى ملامح هذه الصور فيما يلي:

1) صورة البطش والقتل والانتقام:

"النار تقدي والتسركيله زير التحزيمه"

الشار يضرب والتسركيله آنا زير التحزيمه"²

تعكس هذه الصورة سياسة الأرض المحروقة، التي مارستها القوات الفرنسية على المجاهدين والمدنيين العزل، فعبرت الشاعرة عن حالة الذعر والهول أثناء المعركة، فذاك رصاص البنادق وقصف المدفعية والطائرات كأثما نار مُلتهبة تأتي على الأخضر واليابس، كما غذّت الشاعرة الحماس عند المجاهدين وطابعتهم بالتحلّد والثبات والصبر، وحفّزتهم للاستعداد لمواجهة العدو رغم الظروف الصعبة التي كانت تُحيط بهم.

"سركلونا ورفدونا في اللواط ل جنرال

ضربوه بالرفال طاح على قفاه "ما هدايش"³ العُمُر"⁴

"آنا، آنا وكي راني خايف على شعبان ل طاح على قفاه"⁵

"العين تبكي والقلوب امجرحه اوداير ساقيه"⁶

تمثّل لنا هذه الصّور المجازر الجماعية والقتل والتعذيب والتنكيل الذي تعرّض له المجاهدون إلى جانب طريقة القبض على المدنيين، فالقلوب جريحة والعيون باكية والدماء تسيل وكأثما جدول ماء.

كما وصفت الشاعرة صورة انتقام العدو الفرنسي من القرويين في المناطق الجبلية، بسبب انضمام الشهيد بن علال إلى صفوف الثورة التحريرية، حيث تقول:

ضربتنا الكوبتير فلجبال"⁷

"انهار اللي مشى بن علال

2) صورة التحدي والصمود والشجاعة:

شوفو بن علال كي "كوراج"⁸

احرق "الفوارم"⁹ وعاود لبغال"¹⁰

وولاد هذا الوطن ما ينغلبوشي"¹¹

"راه فالجري رافد الديسية

آديو ما دار بن علال

"ايعات الروبلان ألا طاكلي

"يا شرفه"¹² نوضي تولدي

باش نخلفوا الزعامي¹³»¹⁴

"راحنا بولادنا بكمبرو

ويخلفوا الشهدا لماتوا

ديروا السلك ولما ديرو

الزعامي نقزوه وفاتو

نعيش بتافغا والقندول

وما نفوطيشي على ديغول"¹⁵

صوّر صريحة تدلّ على الشجاعة والصمود والتحدّي نوهت بشجاعة "بن علال" وإقدامه وقدرته القتالية وقوة عزيمته فهو يقاتل، ولا يستسلم حتى آخر قطرة من دمه.

كما أنّ استمرارية الثورة تتوقّف على سلامة أفرادها وقوتهم وهم كلّهم صمود وتصدي لكلّ أشكال القهر والهيمنة، حيث أنّهم يتحدّون المستعمر على الاستمرار وعدم الرضوخ إلى فرنسا مهما فعلت، ويفضّلون العيش بنباتات عشبية بسيطة (التافغا-القندول) على أن ينتخبوا مع فرنسا التي وعدتهم بالرفاهية والعيش الكريم.

3. صورة المرأة البطلة:

"لبسوني جلابّة وسروال طويل

ونمشي معاكم أصحاب الليل

آو والديا لبسوني جُنديّه

ولُيْمَتُ البحار عليا"¹⁶

"سنيت مع خاوتيلقديمه

إيلا مت لتبكيوش عليا"¹⁷

"جُندي وجُنديا

بالصدق والنيا

دارو العمليا

في ولد العسكري"¹⁸

"رني بين لجروف ندبال

لكانش عسّه مع لجال"¹⁹

وللمرأة البطلة لفظة من الشعر، فكانت متطلّعة للحرية والاستقلال. فهذه صوّر صادقة عن إحساسها اتجاه الأحداث التي كانت تعيشها كلّ يوم من حزنٍ وألمٍ، مما حفّزها للإشفاق على ضحايا المأساة باستعجال النصر. ومن ثمّ، تولّدت لديها رغبة جامحة في حمل السلاح والالتحاق بصفوف المجاهدين والكفاح معهم بشتى الطرق من أجل طرد المستبدّ من الوطن الجزائري.

4. صورة الجهاد والاستشهاد:

"والجهاد اقليل من يديّه يانا

صبروا "زهية"²⁰ على بن علال"²¹

"هذاك ولد "أثنا عش"²² المليون آنا

لا تبكي لا تقولي ولدي"²³

"يامّا علاش تبكي عليا

ولذك ضحّي على الحرية"²⁴

"هما اثلاثة عولوا للموت آنا

انهار الجمعه اوراه ايشيّب"

وتعكس هذه الصورة ببسالة المجاهدين وإقدامهم على الاستشهاد في سبيل الله والوطن، لأنّ ثمن الحرية يكون غالياً وقائمة الشهداء مفتوحة حتى يحنّ الفرج.

فها هي ذي المغنية تطلب من الذين يحملون خبر استشهاد "الرايس بن علال" إلى زوجته وعائلته، بأن تتحلّى بالصبر والثبات أمام هذه الفاجعة العظيمة التي مسّت الثورة التحريرية.

كما تتوجّه المغنية إلى الأم التي استشهاد ابنها وضحي من أجل الحرية، لتخفف عنها بعض الشيء مذكرة إياها بأنّ هذا الشهيد قبل أن يكون ابنها فهو ابن الجزائر، وأنّ الشعب الجزائري كلّّه متأثّر بموته.

وتبدو صورة الاستشهاد جلية في البيت الأخير، حيث أقبل هؤلاء الثلاثة على الموت "الشهادة" بدل حياة الذل والهوان. وكلها صورٌ تُحرِّك فيهم روح المقاومة وتثير لديهم كوامن العزة وتحفزهم على رفع الراية، راية الجزائر الحرة المستقلة.

5. صورة الغدر والخيانة:

"الحركي" ²⁵ مشى و"مرتو" ²⁶ توصي	جيب دجاجة يا "نوار الفول" ²⁷ ²⁸
"لا خمس آلاف لا جلابه	كي يديرو يا البياعه"
"يا القومي" ²⁹ يا الغارق في لجبال	بعث الجنة واشريت النار" ³⁰
"داروها بيا" الكوارتية" ³¹	وداو "سماوتنا" ³² "للقنوس" ³³ ³⁴
"قاع" الدشرة" ³⁵ وطنيه	فيها زوج ديار "دوليه" ³⁶

تفضح هذه الصور بعض الأفعال المناهضة لمبادئ الثورة، وعرقلة مسيرتها، والتي اعتبرت خيانة وتقصيراً في حقّ الوطن. حيث باعت فئة من الجزائريين ضمائرهم للعدو، وتجرّدت من دينها الحنيف، وتكرّرت لنداء الثورة، فانحازت إليه دون كبرياء أو غيرة وطنية وتجنّدت في صفوفه وداومت على الخيانة.

وكانت الخيانة تتمثل في إفشاء ونقل أسرار الثورة إلى العدو الغاشم.

لذا، تعرّضت بعض نصوص أغاني الصّف إلى هؤلاء الخونة وأعمالهم الدنيئة، وأطلقت عليهم عدّة صفات حسب مناطق الوطن، "فمنهم من يسمّيه بالحركي، والبياعة، والقومية، والخبثاء، والعملاء والخونة، والكوارتية، والدولية،..." ³⁷ كما تُبدي المغنية سخطها الشديد عليهم فتهجوهم هجاءً مرّاً، وقد يتعدّى ذلك إلى السخرية والاستهزاء، فتقول:

"لواغش كلاو المشوي"	لك حمار" ³⁸
"ميمت الحركي دجاجة" قارقه" ³⁹	نندي حمامة وارده"
"الحركي مالك مالك"	كلب في طبسي كلاو" ⁴⁰
"علاش تحوّل في لجبال"	كلاب فرنسا" ⁴¹

"ديقول ماسي نتاع الهمة" اشنايفه ملاح للشمة"

وقد تكشف لنا هذه الصور ما تكنّه المغنية من إحساس بالبغض والكره اتجاه الخونة، فتنتعهم بنعوت سافرة مثل (الحمار، الكلاب، الدجاج، ...) فهي سخرية لاذعة لهم ولقاداتهم وعلى رأسهم "ديغول" الذي تصفه بكبر الشفاه وعدم الأهلية للتقدير بعد أن أخلف بوعوده للشعب الجزائري.

ومن ثمّ، الصور الصريحة تحضر بشكل مكثّف في هذه النصوص الغنائية الثورية لأنها أقرب إلى أذهان الشعب من الكلام المجرّد، فظروف الحرب وهولها لم تسمحا للشاعرة أن تبتعد بخيالها إلى أبعد من ذلك، ومع كلّ هذا استطاعت أن تنتقي الكلمات الأكثر تعبيراً، حتى يتمّ الإيحاء والتأثّر والانفعال، أضف إلى ذلك صور الافتخار والحبّ ولوعة الفراق والخيانة والرثاء... الخ. التي جعلت عواطفها فاترة وأسلوبها مباشر يثلج الصدر ويشفي الغليل ...

(ب) الصور الفنية:

1. الأسلوب:

إنّ الشاعر يملك الكثير من وسائل التصوير، ومن خلالها يصل إلى مبتغاه ولا بدّ أن تكون له القدرة على نقل هذه الصورة التي يستخدمها ليوضّح ما عجزت اللغة الواضحة عن إيضاحه" ⁴².

فالصورة عبارة عن وسيلة فنية يستعين بها الشاعر لأداء وظيفة يقرب من خلالها معنى المقصود إلى ذهنية المتلقي، فمن خلالها يُعبّر عن مشاعره وعواطفه، ويقدم دعماً جالياً للقصيدة، وبها يكسب عمله الفني قيمة.

ولكنّ هذا المضمون الأدبي، رغم قوّته وأصالته، لا يمكن أن يؤثر في المتلقي ما لم يتوقّر له الأسلوب الرشيق والمقرّر. وأغنية الصّف بدورها هي أغنية تثير العواطف وتقرّر المبادئ، ولذلك جاءت بأسلوب تقريرى مباشر. "فالمغنية استطاعت أن تكون عند المتلقي أثراً إيجابياً وعاطفة وهي تنقل له صور الحوادث والقضايا وحتى المواقف السياسية والاجتماعية مُركزة فيها على خيالها الإنتاجي"⁴³.

ورغم أنّ مثل هذه النصوص قيلت للغناء، إلّا أنّه يُشترط فيها الوضوح والسهولة والمباشرة حتى يتسنى لها الوصول إلى الجماهير الشعبية، وترديد المقاطع الشعرية الغنائية ذات المضمون الهادف بأسلوب مباشر مقصود.

"ومن هنا يتّخذ أسلوب الإثارة والوخز والدعوة الصارخة صورة الأجراس المبنّدة بالخطر فتعتمد على الاستفهام والإنكار والتعجّب والنداء والتحريض والأمر والنهي والألفاظ الرّنانة"⁴⁴.

ومن الأساليب الإنشائية الطلبية التي طغت على نص أغنية الصف: النداء والاستفهام والأمر والنهي والتمني... الخ. والتي تشكّل دفْعاً قوياً للحماس الوطني والديني، وإثارة عاطفية حساسة بالنسبة للنصوص الغزلية.

نذكر بعض النماذج منها:

1. النداء:

"يا جنود يا اللي كنتومعاه	يا نا خوي ما سمعتوشلغاه" ⁴⁵
"يا عكاشة و"رباعته" ⁴⁶ جاو	يا نا "الكونفه" ⁴⁷ جايه بالتي" ⁴⁸
"يا جماعة الهواري في لجال	سولو حمزة على نجيب" ⁴⁹
"الرايس آ "الهواري" ⁵⁰	وين مشى الخياري" ⁵¹
"يا الساكنين لجال بلاما	وري معاكم يا زُعما" ⁵²
"يا لواغش لحرار	صابرين لجلید ولجوع" ⁵³

ونجد نداء الشاعرة للمجاهدين نداءً مباشراً، تحثّهم فيه على التضامن والصمود والتحدّي في وجه الغزاة المحتلّين، والصبر على المقاومة لتحقيق الحرّية، لأنّ الحرية لا تقدّم على طبق، فهي تتطلّب تضحيات جسام، ودماء زاكيات ترتوي بها تربة الوطن.

ولم تكتف الشاعرة بنداء المجاهدين، بل تجاوزته إلى نداء الخونة كذلك، لتذمّهم عن خيانتهم للوطن وخداعهم للثورة بوشايتهم للمجاهدين وترصد حركاتهم ونقل أخبارهم إلى العدو الغاشم، حيث تقول:

"آ الحركي اللي ماشي اتسركل	لك جيب لي بُصيار" ⁵⁴
"يا الحركيه ما تسال دي	في الواد مرميه" ⁵⁵

ويحضر النداء في موضوع طغى على أغنية الصف، وهو موضوع الغزل فها هي ذي الشاعرة تنادي فاطمة وتمدحها بأحسن الخصال قائلة:

"يا فاطم سلسله ذهبيه	معلقه في باب مغنيه
يا البوشطه برحت بك الناس	يا فاطم يا خيار الناس" ⁵⁶
وتنادي الحبيبة التي هجرت حبيبها، فيتحوّل الحب والود إلى الشكوى والحيرة فتقول:	
"يا لحبيب عوجوك غلي،	تفوتني عليّ وما تناينيش

يا المِخَنَ قديمه "ما جبرتلها"⁵⁷ دوا"⁵⁸

أما أسلوبي الأمر والاستفهام نجدهما بكثرة نظراً لطبيعة النصوص الثورية التي تحتاج إلى التساؤل عن المصير المجهول للبلاد، وأمر المجاهدين بالثبات والتكاتف والتآزر مع إخوانهم لتحقيق النصر.

تقول الشاعرة:

"زاكم"⁵⁹ من القيل والقال
"أصتحفظوا"⁶¹ على نعمه وهلال
"مالك"⁶³ يا مول الروبلان
"كيفاش"⁶⁵ ندير مع ولد جوندي
"شكون"⁶⁷ رفيقك يا خويه

وفي الغزل تقول:

"أرواح أمقرون الحواجب أرواح
"اعطيني العاهد يا خويا لا تبعدش الزين
"زيدو الهنا يا صغار الهم
ألاً البارح عايروني بيك"⁶⁹
نُسينا الخاتم فين كنا قالسين"⁷⁰
"يا علاش"⁷¹ تقيلو تم"⁷²

الهوامش

1. د. فوزية دياب، القيم والعادات الاجتماعية، المرجع السابق، ص 51.
2. منقولة عن طريق السَّماع، أغنية "واد الشولي"، م. س. د.، قيلت القصيدة الأصلية لواد الشولي سنة 1959 من طرف المجاهدين المسجونين "بلعيد مولدية" من دشرة تيزي (عين فزة)، و"عيشة" من قرية بني سنوس (الخميس)
3. ماهدليلش: لم يترك لي.
4. منقولة عن طريق السَّماع، المجاهدة (خيرة ابنة حمو) سيدي بلعباس.
5. منقولة عن طريق السَّماع، السيدة عياد خيرة، 52 سنة.
6. منقولة عن طريق السَّماع، قصيدة "ناض الجهاد"، م. س. د.
7. منقولة عن طريق السَّماع، أغنية "سامحوني في دمكم اللي ضاع"، م. س. د.
8. كوراج: تحريف للفظ الفرنسي "Le courage" أي الشجاع.
9. الفوارم: مأخوذة من اللفظ الأجنبي "Les fermes" ومعناه المزارع.
10. منقولة عن طريق السَّماع، قصيدة "واد الشولي" الأولى، م. س. د.
11. منقولة عن طريق السَّماع، السيدة شقرون فاطنة، ييدر دشرة.
12. شرفة: العائلة الشريفة.
13. الرعامي: المجاهد القائد.
14. منقولة عن طريق السَّماع، قصيدة "يا الحركي" المجاهدة فاطمة بنت حلي.
15. منقولة عن طريق السَّماع، المجاهدة (خيرة ابنة حمو) سيدي بلعباس.
16. منقولة عن طريق السَّماع، السيدة شقرون فاطنة، ييدر دشرة.
17. منقولة عن طريق السَّماع، قصيدة "الكوارتية"، المجاهدة فطمة بن حلي.
18. منقولة عن طريق السَّماع، قصيدة "قصة الأوطان"، المجاهدة مسكاري بمينة.
19. منقولة عن طريق السَّماع، قصيدة "راهم فالجيل العالي"، المجاهدة فطمة بن حلي.
20. زهية: أرملة الشهيد بن علال.
21. منقولة عن طريق السَّماع، أغنية "وادي الشولي"، م. س. د.

²²أنواعش: 12 والمقصود: الشهيد هو ابن الجزائر التي كان تعداد سكانها يبلغ 12 مليون نسمة آنذاك.

²³منقولة عن طريق السَّماع، أغنية "وادي الشولي"، م. س. ذ.

²⁴منقولة عن طريق السَّماع، أغنية "الوطنية"، م. س. ذ.

²⁵الحركي: مأخوذة من كلمة "Harki" وهو الخائن.

²⁶مرتو: زوجته.

²⁷نوار الفول: اللون البنفسجي، والأبيض لنبات الفول.

²⁸منقولة عن طريق السَّماع، قصيدة "يا الحركي"، المجاهدة فطمة بن حلي.

²⁹القومي: مأخوذة من لفظ "Goumier"، وهو الخائن الذي التحق بصفوف العدو الفرنسي.

³⁰منقولة عن طريق السَّماع، أغنية "الحركي"، السيدة بلعيد مولدية، 65 سنة، عين فزة.

³¹الكوارتية: المتعاملين مع الإدارة الاستعمارية.

³²سماوتنا: الأسماء.

³³قنوس: الأجانب والمقصود هنا المستعمر الفرنسي.

³⁴منقولة عن طريق السَّماع، المجاهدة فطمة بن حلي.

³⁵الدمشقة: القرية.

³⁶دولية: المتعاملين مع الإدارة الاستعمارية.

³⁷غوثي شقرون، المرجع السابق، ص 167.

³⁸منقولة عن طريق السَّماع، المجاهدة (خيرة ابنة حمو) سيدي بلعباس.

³⁹فارقة: تحضن البيض.

⁴⁰منقولة عن طريق السَّماع، أغنية "وادي الشولي"، م. س. ذ.

⁴¹منقولة عن طريق السَّماع، المجاهدة خيرة ابنة حمو.

⁴²محمد المنصور الريسوني، الشعر النسوي في الأندلس، ص 38.

⁴³محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، ص 411.

⁴⁴صالح خري، المرجع السابق، ص 341.

⁴⁵عن طريق السَّماع، قصيدة "يا جنود يا اللي كنتومعاه"، المجاهد فطمة بن حلي.

⁴⁶ارباعته: جماعته.

⁴⁷الكونف: القافلة العسكرية.

⁴⁸منقولة عن طريق السَّماع، قصيدة "وادي الشولي"، م. س. ذ.

⁴⁹منقولة عن طريق السَّماع، قصيدة "سامحونا يا الشهيد".

⁵⁰هوارى: هوارى بومدين، اسمه الحقيقي بوخروبة محمد، وهو رئيس الجمهورية الثاني، تولى الحكم في 19 جوان 1964، التحق بصفوف الثورة وتقلد رتبة عقيد.

⁵¹منقولة عن طريق السَّماع، زناقي بختة، 55 سنة.

⁵²منقولة عن طريق السَّماع، من الذاكرة الشعبية.

⁵³منقولة عن طريق السَّماع، قصيدة "يا الحركي"، المجاهدة فطمة بن حلي.

⁵⁴منقولة عن طريق السَّماع، قصيدة "آ الحركي"، المجاهدة فطمة بن حلي.

⁵⁵منقولة عن طريق السَّماع، المجاهدة (بودلال حليلة) وهران.

⁵⁶منقولة عن طريق السَّماع، السيّد غزال ميلودة، 55 سنة.

⁵⁷ماجرتلها: لم أجد لها.

⁵⁸منقولة عن طريق السَّماع، السيّد عرابي الزهرة، 50 سنة.

⁵⁹زاكم: أسكتوا، كفوا.

⁶⁰ منقولة عن طريق السماع، قصيدة "خيطة النظام"، المجاهدة فطمة بن حلي.

⁶¹ أصتفظوا: بمعنى حافظوا.

⁶² منقولة عن طريق السماع، قصيدة "يا الحركي"، المجاهدة فطمة بن حلي.

⁶³ مالك: ما بك؟

⁶⁴ منقولة عن طريق السماع، المجاهدة (بودلال حليلة)، وهران.

⁶⁵ كيفاش: كيف؟

⁶⁶ منقولة عن طريق السماع، قصيدة "الله يعاون المجاهدين"، المجاهدة فطمة بن حلي.

⁶⁷ شكون: من؟

⁶⁸ منقولة عن طريق السماع، قصيدة "راهم فالجبل العالي"، المجاهدة فطمة بن حلي.

⁶⁹ منقولة عن طريق السماع، السيّدة لبّاد الخالدية، 40 سنة.

⁷⁰ نفسه.

⁷¹ علاش: لماذا؟

⁷² نفسه.